

هموم الشباب المستقبلية



«في مرحلة الطفولة قد يتمنّى ابن الطبيب أن يكون طبيباً، وابن المهندس أن يصبح مهندساً وابنة المعلمة مثل أمّها، لكنّ آمانيات الطفولة ليست بالضرورة مشاريع للمستقبل، فقد تتبخر مع تقدّم العمر، فما أن يصل الفتى أو الفتاة إلى سنّ البلوغ حتى يستشعر بشخصيّته المستقلّة التي تبحث عمّا يجعل منها كائناً اجتماعياً ذا وجود نافع بذاته. إنّ الشباب أو الشابة ينتقلان في هذه المرحلة من "الشخص" إلى "الشخصية" باحثين عن السّبل التي تمنح شخصهما امتيازات جديدة كأن يكونا شخصية أدبية أو علمية أو ثقافية أو اجتماعية أو قيادية أو فنّية وما إلى ذلك، ففي هذه المرحلة لا يكتفي الشبّان والشابّات بالموقع الاجتماعي العادي الذي ربّما تكون الظروف العائلية أو المحلية أو المعيشية قد صنّعه ضمن قالبها الخاص.. إنّ الشاب (فتى كان أم فتاة) ينزع إلى أن يكون في الموقع الأنسب الذي يختاره بنفسه ويصنعه بيديه، وهذا طموح مشروع يحقّ لكل شاب أو شابة أن يتطلّع إليه، وأن يعملوا من أجل الوصول إليه. فمن الخطأ اعتبار موقعنا الاجتماعي قدراً مقدوراً، بمعنى أنّّه يتعدّّر علينا تغييره، وكأنّه بناء أثري يصعب هدمه، أو شجرة معمرّة لا يمكن اقتلاعها، ذلك أنّ مستقبلنا بأيدينا، ولعلّ الكثيرين ممّن بقوا يراوحوّن في مواقعهم لم يبذلوا الجهود المطلوبة للخلاص من هذا الواقع أو ذاك الموقع، وإلا فلو نظرنا حولنا لرأينا كيف أصبح ابن العامل طبيباً وابن الموطّّف البسيط محامياً، وابن البقّال مهندساً شهيراً، وربّما ابن الأمّميّ كاتباً معروفاً وهكذا. ولقد قيل بأنّ المرء حيثُ يجعل

نفسه: إن رفعها ارتفعت وإن وضعها اتّضعت. وقيل كذلك: همّوا بمعالى الأمور لتناولوها. وممّا يُروى في هذا الصّدّد أن (كافور الأخشيدي) الذي كان حاكماً على مصر أيسّام المماليك، كان قبل أن يُصبح ملكاً هو وصاحبه عبيدين مملوكين، فتمنّى صاحبه أن يُباع لطبّاخ حتى يملأ بطنه بما يشاء من الأطعمة، وتمنّى (كافور) أن يملك مصر. فكان أن بيع الأول لطبّاخ وكافور لقائد عسكريّ، فأظهر كافور كفاءة واقتداراً في أثناء خدمته لسيّده، فلمّا مات مولاه قام مقامه. ومرّ (كافور) ذات يوم بصاحبه، فقال لمنّ معه من حاشيته: لقد قعدت بهذا همّته - فكان كما ترون - وطارت بي همّتي فكنتُ كما ترون، ولو جمعتني وإيّاه همّة واحدة لجمعنا عمل واحد، يقول الشاعر: وما المرءُ إلّا حيث يجعلُ نفسهُ *** فكن طالباً في النّاس أعلى المراتب! هَمّ الدراسة: في سنيّ الدراسة، يقلق الشاب والشابّة فيعيشان هموم المستقبل، ورغم أن كلاًّ منهما قد اختطّ طريقه باختيار الفرع الدراسي العلمي أو الإنساني الذي يرغب، أو الذي ألجأته إليه علاماته التي حاز عليها في امتحان الإعدادية، لكنّه يبقى يعيش هذا القلق. والشاب الجادّ المثابر لا يعتبر دراسته الجامعية هي آخر محطة في طريق حياته، فكَم من الحاصلين على الشهادات الجامعية واصلوا طريق العلم فحازوا على شهادات أعلى، وكم من الذين تخرّجوا في اختصاص معيّن برعوا في اختصاصاتهم - جرّاء مواصلة البحث - حتى فاقوا الذين سبقوهم في هذا المضمار أو ذاك. وبما أنّه ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه، فقد لا يوفّق البعض منّا لإكمال دراسته إمّا بسبب ظروفه عائلية خاصّة، أو مالية خانقة، أو سياسية ضاغطة، لكنّنا رأينا من شقّ طريقه في الحياة وتفوّق في مواهبه على كثير من أقرانه. "الدراسة" إذاً هي همّ من هموم المستقبل، وحيّ بها أن تكون كذلك، فهي الأساس والعماد الذي ينطلق منه الشاب أو الشابّة ليمارس اختصاصه. ولقد ولّى أو كاد الزمن الذي يعتبر فيه الطالب شهادته الجامعية هي أعلى مراتب بذله وجهوده فيركن إليها ما بقي من حياته. فنحن اليوم أمام حياة متطوّرة لا تقبل بالمستوى الذي كان مقبولاّ بالنسبة لآبائنا، فالشهادة الجامعية اليوم قد تكون كشهادة الإعدادية بالأمس، والماجستير مرحلة إعداد للدكتوراه، بل حتى الحائزون على الدكتوراه يواصلون دراساتهم وأبحاثهم، وهناك من نال أكثر من شهادة دكتوراه. فإذا كان زميلي أو جاري أو قريبي أو صديقي قادراً على الوصول إليه من مركز علميّ مرموق، فبإمكاني - ضمن شروط وظروف مماثلة - أن أصل إلى ما وصل إليه، فالمستقبل لا يحابي أحداً ولا ينحاز إلى أحد. أبوابه مفتوحة للجميع، فأمام الذين دخلوا من أبوابه الواسعة فهم الذين تحوّل عندهم "همّ" المستقبل إلى "همّة"، وقديماً قيل: "مَنْ جَدَّ وَجَدَّ وَمَنْ زَرََعَ حَصَدَ". هَمّ العمل: الهمّ الآخر الذي يدور في أذهان الشبّان وربّما كان يؤرقهم هو "العمل". فقد يتخرّج الشاب من الجامعة لكنّه لا يجد العمل المناسب الذي يحمل

اختصاصاً فيه، وقد تضطره ظروفه الحياة إلى استبدال اختصاصه، أو العمل بغير هذا الاختصاص، فإمّا أن يقاتل من أجل أن يوظّف طاقته في المجال الذي يحبّ ويرغب، وإمّا أن يتعذّر عليه ذلك فيصطدم بواقع لا يمكنه من تحقيق إرادته. فإذا نلتَ ما تتمنّى كان حقّاً عليك أن لا تعيش الرتبة في عملك، بل عليك أن تسعى لأن تكون المميّز بين زملائك، المبدع في حقل عملك، النازع إلى تطوير خبرتك واثراء تجربتك، وأن لا تعتبر ما أنت فيه خاتمة المطاف. وأمّا إذا حالت الظروف الصعبةُ بينك وبين الوصول إلى الموقع العملي الذي تطمح إليه، فإنّ عليك أن تتذكّر أنك ربما خسرت موقعاً ولكن بقيت أمامك مواقع قد تجد فيها ذاتك، فما آتاك من المواهب والإمكانات والطاقات لا تحدّ بمجال معيّن، فكم رأينا شباباً طموحين أبدعوا حتى في غير مجال اختصاصهم لسبب بسيط وهو أنّهم رفضوا الاستسلام للهزيمة أو للظروف غير المواتية. همّ الحصول على المال: الهمّ الثالث هو "المال"؛ فمتطلّبات الحياة اليوم كثيرة، والدخّل الذي يحقّ لقه الشاب قد لا يتناسب مع حجم تلك المتطلّبات، وإزاء هذا المشكل لابدّ أن نرسم موازنة بين ما نجنيه من مال وبين حاجتنا الأساسية والضرورية، لأنّ قائمة الاحتياجات لو تركت مفتوحة فإنّها سوف لن تنتهي، لذلك ليكن شعارنا "المال بخدمتنا، ولسنا بخدمة المال". لكن تنمية الدخّل وتحسينه أمر لا عيب فيه، بل هو من طموحات الإنسان الذي يرفض المراوحة، ذلك أنّ القبول بالقليل في حين أنّ الحصول على الأكثر متاح يعدّ عجزاً وتقاعساً، وإلّا تعالى يقول: (فَإِمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (المكّ/ 15). ورغم أنّ المشكلة المالية تتعب الكثير من الشبّان وتؤرّقهم، ممّا تضطر بعضهم إلى العمل في أكثر من مجال، وتضطر آخرين إلى الهجرة لبلدان تناح فيها فرص أوسع للعمل، إلّا أنّ ما نحبّ أن نلفت الانتباه إليه هنا هو أنّ تطوير القابليّات والمهارات وتنمية المواهب واللجوء إلى مزيد من التخصّص والالتكال على الإنسان، سبيل من السبيل الكفيلة للخروج من هذا المأزق. على أيّة حال، المال مهم لكنّه يجب أن لا يكون أكبر همّنا، فليس بالخيز وحده يحيا الإنسان. لقد طلب بعض المسلمين أن يدعو لهم رسول الله (ص) ليكونوا من الأثرياء، وكانوا قبل الثراء من عبّاد الله، والمتفرّجين إليه بطاعتهم، وقد نصّحهم النبيّ (ص) أن يعيشوا الكفاف فهو أفضل لحالهم، لكنّهم أبوا إلا الثراء، فدعا لهم النبيّ (ص)، فلمّا أثروا خفّت عباداتهم في البداية، ثمّ قصّروا عنها، ثمّ تركوا بعضها. ولذلك فإنّ (القناعة) لا تتصادم مع السعي للحصول على المال، ولكن التهاك والتكالب على المال هو المشكلة، وحبّ الدنيا الذي من مظاهره حبّ المال، كماء البحر كلّما ازددت شرباً منه ازددت عطشاً. إنّنا لا نقول لمَن يُفكّر في إنشاء مشروع مالي تجاري أو غير تجاري، لا تفعل لأنّك غداً تموت، بل نقول له: خُذ نصيبك من الدنيا وتمتّع بحلالها وطيبّ لباثها، ولكن لا تكن الدنيا أكبر همّك

ولا مبلغ علمك، لأنّ ما زاد عن حاجتك فستتركه للورثة، ولأنّ للمال الزائد همومه ومشاغله وتبعاته. هَمَّ الزَّوْجِ وبناء الأسرة: وهناك أيضاً همَّ "الزَّوْجِ" كمشروع مستقبلي، فغالباً ما يفكّر الشاب (فتى أو فتاة) في هذا المشروع الاجتماعي المبارك، بل يشغل حيزاً واسعاً من اهتمامهما، فهما يقبلان على تشكيل نواة أسرة إسلامية يعيشان في طلال سعادتها وهنائها بما أنعمه الله تعالى على كلٍّ منهما بنعمة الآخر (الشريك): (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...) (الروم/ 21). إنّ شركة الحياة الزوجية مشروع مستقبلي عظيم الأهميّة يتطلّب حسن الاختيار من كلا الطرفين. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى للمؤمن أن يتزوَّج بكفؤه المؤمنة، كما أراد لها ذلك، لأنّهما يتناسبان فكراً وروحاً وطباعاً وهدفاً، وبالاختيار الموفّق يمكن أن نحكم على أنّ المستقبل الاجتماعي سيحظى بأسرة صالحة تعدّ الحلقة الأساس من حلقات المجتمع الصالح المؤمن السعيد. ولعلّ ما جاء في الحديث من قول الرسول (ص): "تخيّروا لنطفكم فإنّ العرق دساس" صريحٌ في أنّ الزواج ليس قسمةً ونصيباً بمعنى أنّّه قضاء مُبرم لا مردّ له، طالما أنّ المؤمن والمؤمنة في الخيار، فكما للمؤمن حقّ الاختيار كذلك للمؤمنة الحقّ نفسه: "إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه". ولابدّ من الاستعداد لهذا المشروع المستقبلي (نفسياً) و(عملياً)، فلقد دخل بعض الشبّان والفتيات الحياة الزوجية وهما لا يفهمان منها سوى المعاشرة الجنسية، ممّا أدّى إلى نهايات مؤسفة: نزاعات بيتيّة أو طلاق، ولو أنّ الاثنين استعدّوا وتأهّبوا وتأهّلا لمسؤولية الحياة الزوجية، وعرفا متطلّباتها وثقّفوا على العيش المشترك، لما شهدنا حالات الانفصال السريع والخصومات المتكرّرة. إنّ الذي يريد أن يدخل "مؤسّسة الزَّوْجِ" كمَنْ يريد الدخول إلى أيّة مؤسّسة تتطلّب مؤهّلات معيّنة، بل الاهتمام بهذه المؤهّلات في المؤسّسة الزوجية أشدّ، لأنها رفقة عمر ومسؤوليّة مشتركة ومشروع تعاوني، ولذلك كان من الضروري التخطيط لهذا المشروع ودراسة أبعاده المختلفة، والتأني من الاختيار وتوطين النفس على تحمّل كلّ التبعات والمسؤوليّات الجديدة. هَمَّ العمل الاجتماعي: إهتماماتنا كشبّان لا تنحصر في الأمور الذاتية فقط، بل بقضايا مجتمعنا أيضاً، فالإسلام يريد للمسلم أن لا ينغلق داخل قوقعة ذاته وينسى أنّّه ابن مجتمع يريد منه أن يُساهم في بنائه وتطويره وخدمته ورفع مستوى أبنائه بما أوتي هو من قدرة على ذلك. إنّ عملك الذي تحصل منه على دخل معيّن مطلوب، كما أنّ عملك في سبيل الله (في خدمة المسلمين والناس من حولك) مطلوب أيضاً، وله أجره، كما أنّ لعملك أجره فلا يفوتك شيء، بل إنّ دائرة الإنسان وآفاقه تتّسع من خلال إهتماماته الاجتماعية والخيرية والمدنية والتعاونية والتثقيفية. وكما يهتمّني مستقبلي كشاب أريد بناء حياتي، فإنّ بناء مستقبل وطني وشعبي

وَأُمِّتِي هَمْ مِنْ هُمُومِي، لِأَنَّ مُسْتَقْبِلَهَا الزَّاهِرُ يَنْعَكِسُ عَلَى مُسْتَقْبَلِي، كَمَا أَنَّ مُسْتَقْبَلِي الْمُشْرِقُ يَنْعَكِسُ عَلَى مُسْتَقْبَلِهَا. هَمْ السَّمْعَةُ وَالشَّهْرَةُ؛ وَثَمَّةٌ هَمْ آخِرُ هُوَ هَمْ الْجَاهُ وَالسَّمْعَةُ وَالشَّهْرَةُ. وَعَلَيْنَا شَبَابَنَا وَشَابَاتُ أَنْ لَا نَسْتَعْجِلُهُ فَهُوَ آتٍ أَحْسَنًا الْأَدَاءُ فِي عَمَلِنَا، وَالتَّزَمْنَا الصَّبْرَ حَتَّى يَحِينَ مَوْعِدُ الْحَصَادِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَعْمَلَ وَتَعَالَى أَنْ يَنْشُرَ عَطَرَ أَعْمَالِنَا وَيَذِيعَ عَبِيرَ إِنْجَارَاتِنَا إِنْ كَانَتْ خَالِصَةً لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ. فَالْعَمَلُ لِإِثْبَاتِ الذَّاتِ وَالْقُدْرَاتِ وَالْمَوَاهِبِ أَمْرٌ مُشْرُوعٌ، لَكِنَّ الْعَمَلَ مِنْ أَجْلِ الرَّيَاءِ وَطَلَبِ مَرْضَاةِ النَّاسِ، وَرِضَاهُمْ غَايَةٌ لَا تَدْرُكُ، يَشُوُّهُ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ لِأَعْمَالِنَا، فَإِذَا أَخْلَصْنَا النِّيَّةَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَاسْتَقَمْنَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرِيدُ، وَقَدْ مَنَّا خِدْمَاتِنَا لِلنَّاسِ عَلَى طَرِيقَةِ "خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ" وَأَدْخَلْنَا بِذَلِكَ السَّرُورَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَإِنَّمَا نَحْقِّقُ بِذَلِكَ مَرْضَاةَ اللَّهِ: (إِنْ زَمَّ مَا زُطِّعَ مِنْكُمْ لِرَوْجِهِ اللَّاهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (الإنسان/ 9). وَلَسَوْفَ يَجْعَلُ اللَّهُ لَنَا جَاهًا مَرْمُوقًا، وَيَرْزُقُنَا مِنْ طَيْبِ السَّمْعَةِ مَا لَا نَحْتَسِبُ، فَلْنَعْمَلْ إِذَا فِي خِدْمَةِ النَّاسِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَسَيَكُونُ لَنَا عِنْدَ النَّاسِ مَقَامٌ مَحْمُودٌ. وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَدْعِيَةِ "وَكَمْ مِنْ ثَنَاءٍ جَمِيلٍ لَسْتُ أَهْلًا لَهُ زَشَرَتْهُ" .. قَدْ مَ أَقْصَى مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ مَهَارَاتٍ، وَالْمُكَافَأَةُ تَأْتِي. طَرُقَ الْوُصُولُ إِلَى الْهَدَفِ: خَبْرَاءُ التَّخْطِيطِ يَقُولُونَ: خَطٌّ ← نَفْسٌ ← رَاجِعٌ! الْمُسْتَقْبَلُ لَا يَأْتِي جَزَافًا .. وَلَا يَأْتِي مَنْظَمًا وَفْقَ الرِّغْبَاتِ وَالتَّطَلُّعَاتِ مِنْ دُونِ جَهْدٍ يُبْذَلُ لِكَيْ يَكُونَ كَذَلِكَ. وَإِلَّا فَهُوَ مُجَرَّدُ أَيَّامٍ تَأْتِي لَيْسَ إِلَّا .. وَمَا لَمْ تَخْطِ لِلْمُسْتَقْبَلِ فَإِنَّكَ سَتَكُونُ كَذَاكَ الْبَدْوِيَّ الَّذِي دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَتَرَكَ نَاقَتَهُ سَائِبَةً (مَنْ غَيْرُ أَنْ يَرْبِطَهَا)، وَلَمَّا سَأَلَهُ النَّبِيُّ (ص): "مَاذَا فَعَلْتَ بِنَاقَتِكَ؟ قَالَ لَهُ: تَرَكَتُهَا عِنْدَ الْبَابِ وَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (ص): "إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ". التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ فِي أُمُورِ الْمُسْتَقْبَلِ تَأْتِي بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَدْ خَطَّطْتَ لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَإِلَّا ضَعُفَتْ وَضَاعَتِ النَّاقَةُ! التَّخْطِيطُ لِلْمُسْتَقْبَلِ يَتَطَلَّبُ وَعَيْكَ لِلْأُمُورِ التَّالِيَةِ: 1- الْوَاقِعِيَّةُ: أَنْ لَا تَضْرِبَ فِي الْخِيَالِ بَعِيدًا، ابْقِ عَلَى ارْتِبَاطِكَ بِوَاقِعِكَ، وَخَطِّطْ مِنْ خِلَالِهِ، بِدِرَاسَتِهِ جَيِّدًا وَمَعْرِفَةِ طُرُوفِهِ وَعَقِبَاتِهِ وَمُمَكِّنَاتِ الْعَمَلِ فِيهِ. 2- تَحْدِيدُ الْأَوَّلَوِيَّاتِ: إِذْ لَا بَدْءَ لَكَ وَأَنْ تُخْطِطَ لِأَيِّ هَدَفٍ مِنْ أَهْدَافِكَ أَنْ تُقَدِّمَ (الْأَهَمُّ) عَلَى (الْمُهِمِّ). 3- التَّكَامُلُ: أَنْ تُرَاعِيَ عُنَاوِرَ الْخَطَّةِ الْآخَرَى وَدَوْرَهَا فِي التَّكَامُلِ مَعَ الْعُنَاوِرِ الْأَسَاسِيَّةِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ تَفْتَحَ دُكَّانًا، بَلْ لَا بَدْءَ أَنْ تَعْرِفَ مَوْقِعَهُ وَمَدَى تَرَدُّدِ الزَّائِنِ عَلَيْهِ، وَهَلْ هُوَ يُكْرِّرُ نَفْسَهُ، أَمْ أُنْزَهُ يَغْطِّي حَاجَةَ لِمَنْ يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا، وَمَا هِيَ عَوَامِلُ الْجَذْبِ وَالِدَّاعِيَةِ الْمُمْكِنَةِ. 4- الْمَرُونَةُ: أَيُّ قَابِلِيَةِ التَّعْدِيلِ وَالتَّبْدِيلِ فِي حَالَةِ الْمُسْتَجِدَّاتِ وَالطَّوَارِئِ وَالْإِحْتِمَالَاتِ غَيْرِ الْمَحْسُوبَةِ. 5- الْإِسْتِمْرَارِيَّةُ: فَالْخَطَّةُ تَتَطَلَّبُ نَفْسًا طَوِيلًا لِلتَّنْفِيزِ، وَإِثْبَاتِ مَدَى نَجَاحِهَا فِي الْوَاقِعِ، فَإِذَا لَمْ تَسْتَعِدَّ لِلْمُوَاصَلَةِ فَقَدْ يَفْشَلُ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ أَوَّلِ هَزَّةٍ يَتَعَرَّضُ لَهَا. وَلِذَا فَإِنَّ مَا يَسَمَّى الْمَخْطُوطُونَ بِـ (افْتِرَاضِ التَّوَقُّعَاتِ) شَيْءٌ مُهِمٌّ

وضروريّ لكل مُخطّط، كأن تقول: لو حصل (كذا) ماذا يكون ردّ فعليّ؟! ولو حدث (كذا) ما هو موقفي واستجابتي، فإن ذلك يُقلّل من (درجة الصّدمة) كما أنّّه يوازن درجة التوقّع العالية، أي أنّّه يُهيّئ النفس لـاستقبال الأسوأ، وبقي من حالات الإنهيار. يقول الشاعر: قدّ ر لرجلك قبل الخطو موضعَها *** فمَن علا زَلَقاً عن غِرّةٍ [1] زَلجا إنّ التخطيط عامل واحد فقط من عوامل الوصول إلى أيّ هدف مستقبليّ، فلا بدّ إلى جانبه من (التنظيم) والإصرار، واستحضار الوسائل والأدوات اللازمة والآليات المناسبة، وتقسيم الهدف الكبير إلى أهداف (متوسطة الأجل) وأخرى (قصيرة الأجل)، وتقييم الانجازات الجزئية أو المرحلية ومكافأتها باعتبارها مشجّعات ومحفّّزات على الاستمرار. وباختصار: توفير المقدّمات المناسبة يوصل إلى النتائج المناسبة. ►

[1]- الغِرّة: الغفلة وقلة الخبرة.